الأسباب في الواقع «ما هي إلا مناسباتٌ لا أسبابٌ حقيقيةٌ، وإن سُمِّيَتْ أسباباً على طريق التسامح والتجوز»[1].

وقد قسم العلماء آيات القرآن بالنسبة إلى ارتباط نزولها بسؤال أو حادثة على قسمين:

١- قسم نَـزَلَ ٱبتداءً.

٢- قسم نَـزَلَ عَقِبَ حادثة أو سؤال[2].

ويلاحظ أن القسم الأول الذي نزل ابتداء تتحدث أكثر آياته عن أمور العقيدة ووصف مشاهد القيامة، ووصف الجنة ونعيمها والنار وأهوالها، وكذلك تتحدث عن أخبار الأمم الغابرة وما حَلَّ بأهلها. أما القسم الثاني، وهو ما نزل مرتبطاً بأسباب ووقائع، فمعظم آياته مما يتعلق بالتشريع والأحكام والآداب.

وفي ارتباط نزول الآيات بمناسبة معينة، وهو ما يُسَمَّىٰ بأسباب النزول ـ حكمةٌ تشريعيةٌ وتربويةٌ عظيمةٌ، تجعل من الحكم الذي تتضمنه تلك الآيات تجربة واقعية، وتطبيقاً عملياً في المجتمع، يتم تحت نظر النبي ﷺ وتوجيهه، ويدرك حكمة التشريع الذي تتضمنه تلك الآيات كل من كان شاهداً وقت نزولها، وكل من وقف على تلك المناسبة وعرف قصتها، فنزول الحكم وقت الحاجة إليه يكون أبعد أثراً في نفوس المخاطبين، ويكونون أكثر استجابة له[3].

ثانياً ـ الطريق إلى معرفة أسباب النزول:

اعتنى المفسرون والمؤلفون في علوم القرآن ببيان أسباب النزول كثيراً، لكن تحديد سبب النزول ليس فيه مجال للرأي والاجتهاد، وإنما سبيله سبيل الأحداث

---

(١) محمد الفاضل بن عاشور: التفسير ورجاله ص٢٠.

(٢) السيوطي: الاتقان ١/ ٨٢.

(٣) ينظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص٩٥.

التأريخية، ومن ثم فإن لمعرفة سبب النزول طريق واحد هو النقل الصحيح عن الصحابة الذين عاصروا تنزيل القرآن وشاهدوا الأحداث التي وقعت حينذاك، يقول الواحدي: «ولا يَحِلُّ القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا في علمها، وجَدُّوا في الطِلَاب»[1].

وقد جعل العلماء قول الصحابي في سبب النزول حجة ثابتة بمنزلة الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ، قال الإمام الحاكم النيسابوري: «فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا فإنه حديثٌ مُسْنَدٌ»[2].

وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يذكرون أسباب النزول وينقلونها إلى التابعين، كما روى البخاري عن نافع مولى عبد الله بن عمر أنه قال: «كان ابن عمر، رضي الله عنهما، إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فأَخَذْتُ عليه يوماً (أي: أمسكت المصحف، وهو يقرأ عن ظهر قلب) فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكان قال: تَدْرِي فِيمَ أُنْزِلَتْ؟ قلت: لا. قال: أُنْزِلَتْ في كذا وكذا، ثم مضى»[3].

والروايات المنقولة في سبب النزول بعضها يُصَرِّحُ بأن الآية نزلت بسبب كذا، وبعضها يأتي بصيغة أن هذه الآية نزلت في كذا، أي يراد بها كذا. فمن الأول ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: «بَيْنَا أنا مع النبي ﷺ في حَرْثٍ، وهو مُتَّكِئٌ على عَسِيبٍ، إذ مَرَّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سَلُوه عن الروح، فسألوه، فأمسك النبي ﷺ فلم يَرُدَّ عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحىٰ إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

---

(١) أسباب نزول القرآن ص٥.

(٢) معرفة علوم الحديث ص٢٠.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٨٩.

ٱلرُّوحُ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ [الإسراء] » فهذا بيان صريح لسبب النزول.

ومن الثاني قول مجاهد في الآيات التي في أول سورة البقرة: «أربع آيات من أول هذه السورة نزلت في المؤمنين، وآيتان بعدها نزلت في الكافرين، وثلاث عشرة بعدها نزلت في المنافقين، فهذا ليس بياناً لسبب النزول، وإنما هو توضيح للمعنى. فهو يريد أنها نزلت في نعت المؤمنين والكافرين والمنافقين[1].

ومن ذلك أيضاً قول الواحدي في حديثه عن سورة الفيل: «نزلت في قصة أصحاب الفيل، وقصدهم تخريب الكعبة، وما فعل الله بهم من إهلاكهم وصرفهم عن البيت، وهي معروفة»[2]. فهذا ليس بياناً لسبب النزول، وقد عَلَّقَ السيوطي على قول الواحدي هذا بقوله: «والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية»[3].

وقد جمع العلماء الروايات المنقولة في أسباب النزول من كتب التفسير وكتب الحديث في مؤلفات مستقلة، وأول مَن صَنَّفَ في هذا الموضوع علي بن عبد الله بن ٱلْمَدِيني المتوفى سنة ٢٣٤هـ، وأشهرها كتاب (أسباب نزول القرآن) لعلي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ، وأجمعها كتاب (لباب النقول في أسباب النزول) لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ[4].

---

(١) ينظر: سفيان الثوري: تفسير القرآن العظيم ص١.

(٢) أسباب نزول القرآن ص١٩.

(٣) الاتقان ١/ ٩٠، ولباب النقول ص١٤.

(٤) ينظر: السيوطي: الاتقان ١/ ٨٢.

ثالثاً ـ أهمية معرفة أسباب النزول:

لهذا النوع من البحث التأريخي في الآيات الكريمة أهمية كبيرة في تيسير فهم معناها واستنباط الحكم الشرعي منها «لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قضيتها وبيان سبب نزولها»[1]، فإن بعض مَن تلا هذه الآية ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة] ظن أَنَّ مَنْ كان كذلك جاز له أن يأكل ما يشاء، ويشرب ما يشاء، حتى ولو كان ذلك محرماً[2]. لكن الوقوف على مناسبة نزول هذه الآية يُوَضِّحُ حقيقة معناها، ومَن يشملهم حكمها، فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرهما أنه لما نزل تحريم الخمر قال بعض الصحابة: كيف لأصحابنا الذين ماتوا وكانوا يشربونها؟ قبل نزول التحريم طبعاً، فنزلت هذه الآية ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ . . . ﴿٩٣﴾ ﴾[3].

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن حكم الآية التي تنزل بسبب سؤال من شخص معين، أو عقب حادثة تتعلق بشخص معين، يشمل الحالات التي تشبه حالة مَن نزلت الآية بسببه، وهو ما يعبرون عنه بعبارة (الأَخْذُ بعمُومِ اللفظِ لا بخُصُوصِ السَّبَبِ)[4]. فمن ذلك قول الطبري، بعد أن تحدث عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ . . . ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران]، وهو: «وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرناه أنها نزلت فيه من أهل الشرك، فإنه مَعْنِيٌّ بها كل مُبْتَدِعٍ في دين الله بِدْعَةً، فَمالَ قلبُهُ إليها، تأويلاً منه لبعض متشابه آي القرآن»[5].

---

(١) الواحدي: أسباب نزول القرآن ص٥.

(٢) الزركشي: البرهان ١/ ٢٨، والسيوطي: الاتقان ١/ ٨٣.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٢٧٨.

(٤) الزركشي: البرهان ١/ ٣٢، والسيوطي: الاتقان ١/ ٨٥.

(٥) جامع البيان ٣/ ١٨١.

وورد هذا المعنى في حديث النبي ﷺ فقد روىٰ البخاري عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أن رجلاً اقترف إثماً، فأتىٰ رسول الله ﷺ فذكر ذلك كله، فأنزلت عليه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود]، فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: لِمَنْ عَمِلَ بها من أُمَّتِي[1]. ومن ثَمَّ قال العلماء: «وقد تنزل الآية في معنىً، ثم يكون داخلاً في حكمها كل ما كان في معنى ما نزلت فيه»[2].

المبحث الثامن
عَرَبِيَّةُ القرآنِ وعالميةُ رِسَالَتِهِ

أولاً ـ عَرَبِيَّـةُ القرآنِ:

لا بدَ أن تكون لغة الرسالة التي يحملها الرسول هي لغة قومه الذين يدعوهم إليها، حتى تحقق الغاية منها، وقد أكد القرآن الكريم هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم]، ومعنى (بلسان قومه) أي بلغتهم[3].

وقد جاء القرآن عربياً لأن الله تعالى أنزله على النبي العربي محمد ﷺ وأَمَرَهُ أن ينذر عشيرته الأقربين أولاً، في مكة، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى]، وأم القرىٰ هي مكة[4].

وبلغ عدد الآيات الكريمة التي تؤكد نزول القرآن باللغة العربية أكثر من عشر

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٣٥٥.

(٢) الطبري: جامع البيان ج٢٤ تفسير الآية ٣١ من سورة الزمر.

(٣) الطبري: جامع البيان ١٣/ ١٨١، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٤٠.

(٤) الطبري: جامع البيان ٢٥/ ٨.